

# عملية التنشئة الاجتماعية للطفل المغربي

عبد الواحد الراضي

بشكل ضمني أو صريح نجد لكل مجتمع « مشروعاً اجتماعياً » مهيماً ، بمعنى أن هذا المجتمع حدد لنفسه تطبيق نسق من المعايير والقيم والتنظيم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي المحدد بدقة بهدف إقامة علاقات محددة بين أعضائه ، ويتصل بكل مشروع اجتماعي نموذج من « الشخصية الاجتماعية » هذا النموذج يسهل دمج الأفراد داخل النسق الاجتماعي . وهذه الشخصية الاجتماعية هي نتاج تفاعل إمكانيات كل فرد من جهة و « نسق التنشئة الاجتماعية » المصمم من طرف المجموعة بواسطة المشروع الاجتماعي الذي اختارته من جهة أخرى ، ومن الممكن تحقيق نشاط وتوازن مجتمع ما انطلاقاً من التقاء تزامني بين المشروع الاجتماعي والشخصية الاجتماعية ونسق التنشئة الاجتماعية للطفل . اننا نقترح - من خلال هذا المقال - طرح هذه الاشكالية لتحليل المكونات المختلفة في المجتمع المغربي ، ولتقدير درجتها من حيث التزامن ، ولتقييم الدور المتبادل الذي يلعبه كل مكون من المكونات في عملية التغيير النفسي والاجتماعي الذي يعيشه المغرب حالياً . اننا نقترح في هذا المقال عرض النسق التقليدي المغربي لتنشئة الطفل وأثره على شخصية وسلوك البالغ .

من خلال أعمال فرويد وميلاني كلين وكذلك جان بياجى ، وآخرين غيرهم ، ندرك أهمية الخمس عشرة سنة الأولى في حياة الطفل على نموه الوجداني ، والثقافي والعقلي . ان هؤلاء جميعاً متفقون على الاثر الحاسم الذي تلعبه تلك الروابط التي يقيمها الطفل مع أبويه بوجه خاص ، ومع الوسط الاسروي ، والمدرسي والمهني بوجه عام في تكوين شخصيته ، وفي علاقاته البيئشخصية كإنسان مرافق .

فالمرحلة الممتدة من الولادة حتى المراهقة ، مرحلة عصبية وحاسمة في تنشئة الطفل المغربي حيث انها تطبع سلوكاته الوجدانية ، والعقلية والمذنبية والمهنية والاسروية ، وكل حياته اليومية كمرافق بشكل عميق . ويمكننا رؤية هذه الفترة من خلال مراحل أربع : تمتد الأولى منذ الولادة

حتى نهاية السنة الثانية ، يطبعها اشباع من الناحية السيكولوجية اذا بقي الطفل على قيد الحياة بالرغم من غياب شبه تام للشروط الضرورية المرتبطة بالمستوى الاقتصادي والاجتماعي لوسطه الاسروي ، كنقص في المواد الغذائية، والصحية وغيرها .

ان الطفل المغربي يظل في اتصال شبه دائم بأمه حتى وقت الفطام ، فهو ينام في بيتها وأحياناً على فراش نومها ، وكلما بكى خلال النهار قدمت له تديبها بكل عفوية .

في الاوساط الشعبية ، يقضي الطفل معظم يومه على ظهر أمه ، التي تقيد بتدبير المنزل أو بالعمل في الحقول الزراعية . ولعل عدم وجود غرفة صغيرة خاصة بالطفل ، كان أهم سبب لتفسير مرافقته باستمرار للبالغين من الاسرة الذين يبدلون في العناية والاهتمام به . لهذه المظاهر الجمعية الوجدانية يزداد اهتمام الاب بابنه بين نهاية السنة الاولى والثانية من عمره ، وعادة ما تلبس هذا الاهتمام حساسية خاصة عندما يتلفظ الطفل بكلمات لأول مرة ، كما يخلف هذا الاهتمام ابتهاج حينما يخطئ الطفل على المستوى اللغوي أثناء عملية التعلم بعد هذه المرحلة يصبح الطفل مركز اهتمام الكل ، وأيضا الشغل الشاغل، حيث يشكل أداة ترفيه لاسرته ، وللضيوف ، اذ تعرض عليهم قائمة للكلمات التي تعلمها الطفل متضمنة حتى كلمات الشتم والسب .

ورغم انعدام الانسجام ، وفوضى الجور التربوي الذي يكتنف الطفل فإن الحالة النفسية لهذه المرحلة تظل ايجابية ، ذلك أن الام تهني لابنها من الدفء الوجداني والامن النفسي ، ما يجعله وثيق الصلة بها ، وبصفة اجمالية ما يجعله يحصل من خلال هذه العلاقات على اشباع يفوق نسبة حرمانه .

ان عملية تأديب الطفل على التبول ، تعتبر المصدر الاساسي للتوتر بين الطفل وبيئته الاجتماعية ، ويلاحظ أن هذه العملية تمارس باهتمام بالغ وسط الاسر الحضرية ، بينما لا يهتم بها في الاسر البدوية حيث يكتسبها الطفل القروي تلقائياً . عادة لا تصاحب مرحلة الفطام المتأخر أي اضطرابات خطيرة .

من ناحية أخرى ، فان اشتراك الطفل في حياة البالغين منذ الاسابيع الاولى لولادته ، يضعه مباشرة وسط اهتمامات كثيرة تساعد على نمو ذكائه الحسي الحركي ، كما يكشف نوعية الانجازات التي يمكن للطفل المغربي خاصة والافريقي عامة أن يؤديها عند تطبيق رانز الطفولة ، حيث يبدو بوضوح مدى تفوق الطفل الافريقي على نظيره في الدول المصنعة . هذا التفوق يعكس التحسن الذي يمس النمو السيكولوجي الذي يرجع أساساً الى نوعية العلاقات بين الطفل وبيئته الاجتماعية ، وأمه على الخصوص . هذا ما يتعلق بالفترة الاولى من حياة الطفل ، أما الفترة الثانية فتمتد بين بداية السنة الثالثة الى نهاية السنة السادسة . وتتميز بالتغير الجذري والمعكوس في علاقات الطفل المغربي بأسرته . ذلك أن التحسن الذي يطرأ على لغة الطفل ومشيته يعد عاملاً

سلوكاته ليوافق عليها البالغون وخاصة الآباء .

ان تظفر كل هذه العوامل يذمي لدى الطفل المغربي الاحساس بالالاأس الذي يدفعه الى الانفعال ، بحيث يترجم هذا الانفعال في وقت متقدم من عمره بسلوك نكوصي « ارتداد الى مستوى عقلي أو سلوكي سابق » ، يتوخى من وراءه الطفل أن يصبح من جديد صبيا لينال عطف واهتمام أفراد أسرته خصوصا أمه ، ليرغمها على الاهتمام به ووضع موضع الاعتبار ، لكن هذه السبيل لا تؤدي الى الهدف المنشود ، بل على العكس تسبب للطفل مضايقات جديدة تجعله هذه المرة يتخذ موقف المعارضة والعوان . بيد أن هذه العدوانية تتجه نحو الطفل نفسه ، موقظة لديه الخوف من فقدان الحب ، هذا الخوف الذي لا مفر منه .

وإذا كان عمر الطفل حوالي ثلاث الى أربع سنوات ، فإنه يحتاج الى التشجيع والعطف ، ليتمكن من تغيير وتطوير سلوكه تغييرا ناميا ايجابيا ، الا أن استجابة المجتمع عادة ما تتسم بالامالة ، والمضايقة والسخرية والتهكم . مما يسبب في اضطراب « الانا » عند الطفل وفقدان الثقة بالنفس . ان النقص المعرفي والجسمي للطفل بالنسبة للبالغ لا يسمح له بتعويضه بسلوك التسامح الذي يمكن أن يجد فيه الامن والاطمئنان . وبهذه المحاولات المتتالية بغية الانضباط وتأكيد الذات ، والتي تأخذ حتما بعض صور الرفض والمعارضة ، يفشل الطفل في أغلب الاحيان لان المجتمع لا يقبل الرفض والمعارضة مهما كانت صورتها .

من المفروض أن تأكيد الذات يأخذ سنده من ارادة البالغين ، من هنا كان تسامح الآباء تجاه بعض السلوكات المعارضة شيئا ضروريا . فالأب يدرك مع من يبدي المحبة والنقاهم والبشاشة ، انه يبديها مع الآخرين ، في حين يواجه أبناءه بمواقف سلطوية من شأنها أن تنمي لديهم احساس التوجس وفي بعض الاحيان الحقد ، ونادرا ما تولد لديهم الاحساس بالحب والاكبار ، لان ازدواجية الاحساس تجاه الاب ضرورية لابطان الصورة الابوية التي تساعد على كسب الاطمئنان الداخلي ، والمراقبة الذاتية ، وكذلك على تكوين « الانا الاعلى » . وبدل التصرف بمحاكاة أو بتوجس ، فان الطفل يتمثل كل المنظومة بما فيها من مواقف ، ومتطلبات ، وموانع أبوية ، انها الارادة الابوية تبطن داخل الطفل ، الذي لن يكون ، مستقبلا ، في حاجة ماسة لوجودهما الفعلي ليتصرف بصورة مقبولة . وليدافع أيضا عن اطمئنانه ينشكّل ضمير الطفل ليحل محل أبويه ، ويصبح هذا الضمير مصدر تهديد وأمن بحيث بغدو اتباع أوامره يوازي محبة الابوين وعصانه يولد الاحساس بالذنب والندم ويوقظ فيه التهديد القديم المرتبط بحالة الانعزال .

على المستوى الثقافي تلعب الأسرة دورا مماثلا لدورها على المستوى الوجداني . فشروط الحياة تتغير بشكل كبير بالمقارنة مع المرحلة الاولى .

سذوكته ليرافق عليها البالغون وخاصة الآباء .

ان تظافر كل هذه العوامل يذمي لدى الطفل المغربي الاحساس بالآلا أن الذي يدفعه الى الانفعال ، بحيث يترجم هذا الانفعال في وقت متقدم من عمره بسلوك نكوصي « ارتداد الى مستوى عقلي أو سلوكي سابق » ، يتوخى من وراءه الطفل أن يصبح من جديد صبيا لينال عطف واهتمام أفراد أسرته خصوصا أمه ، ليرغمها على الاهتمام به ووضعه موضع الاعتبار ، لكن هذه السبيل لا تؤدي الى الهدف المنشود ، بل على العكس تسبب للطفل مضايقات جديدة تجعله هذه المرة يتخذ موقف المعارضة والعنوان . بيد أن هذه العدوانية تتجه نحو الطفل نفسه ، موقظة لديه الخوف من فقدان الحب ، هذا الخوف الذي لا مفر منه .

وإذا كان عمر الطفل حوالي ثلاث الى أربع سنوات ، فإنه يحتاج الى التشجيع والعطف ، ليمكن من تغيير وتطور سلوكه تغييرا ناميا ايجابيا ، إلا أن استجابة المجتمع عادة ما تنقسم بالامبالاة ، والمضايقة والسخرية والتهكم . مما يسبب في اضطراب « الانا » عند الطفل وفقدان الثقة بالنفس . ان النقص المعرفي والجسمي للطفل بالنسبة للبالغ لا يسمح له بتعويضه بسلوك التسامح الذي يمكن أن يجد فيه الامن والاطمئنان . وبهذه المحاولات المتتالية بغية الانضباط وتأكيد الذات ، والتي تأخذ حتما بعض صور الرفض والمعارضة ، يفشل الطفل في أغلب الاحيان لان المجتمع لا يقبل الرفض والمعارضة مهما كانت صورتها .

من المفروض أن تأكيد الذات يأخذ سنده من ارادة البالغين ، من هنا كان تسامح الآباء تجاه بعض السلوكات المعارضة شيئا ضروريا . فلاب يدرك مع من يجدي المحبة والتفاهم والبشاشة ، انه يبديها مع الآخرين ، في حين يواجه أبناءه بمواقف سلطوية من شأنها أن تنمي لديهم احساس التوجس وفي بعض الاحيان الحقد ، ونادرا ما تولد لديهم الاحساس بالحب والاكبار ، لان ازدواجية الاحساس تجاه الاب ضرورية لابطان الصورة الابوية التي تساعد على كسب الاطمئنان الداخلي ، والمراقبة الذاتية ، وكذلك على تكوين « الانا الاعلى » . وبدل التصرف بمحاكاة أو بتوجس ، فإن الطفل يتمثل كل المنظومة بما فيها من مواقف ، ومتطلبات ، وموانع أبوية ، انها الارادة الابوية تبطن داخل الطفل ، الذي لن يكون ، مستقبلا ، في حاجة ماسة لوجودهما الفعلي ليتصرف بصورة مقبولة . وليلدافع أيضا عن اطمئنانه يتشكل ضمير الطفل ليحل محل أبويه ، ويصبح هذا الضمير مصدر تهديد وأمن بحيث يغدو اتباع أوامره يوازي محبة الابوين وعصانه يولد الاحساس بالذنب والندم ويوقظ فيه التهديد القديم المرتبط بحالة الانزال .

على المستوى الثقافي تلعب الأسرة دورا مماثلا لدورها على المستوى الوجداني . فشروط الحياة تتغير بشكل كبير بالمقارنة مع المرحلة الاولى .

فدما يرافق الطفل أبويه في تنقلاتهما كما لا تسمح له الأسرة بأن يتعدى فضاء جغرافيا محدودا ، كي يظل تحت مراقبتها المستمرة .

إن فرض إقامة جبرية على الطفل تحد مجال تحرياته واكتشافاته ، وتقلص بالتالي الحوافز التي تنمي خاصية الذكاء التطبيقي . كما أن غياب اللعب خلال هذه المرحلة من عمر الطفل يقوى هدية الانطباع بفراغية الحياة من كل محتوى . وحتى إذا قدمت للطفل لعب في الاعياد الدينية فإن هذه اللعب ستأخذ مكانها وراء زجاج متحف البيت ، قبل أن تداعبها أنامل الطفل .

« وفي الوقت الذي يكون فيه الفضول الطبيعي بحاجة إلى أن يمارس بكيفية ايجابية ، فإنه لا يتعرض لعدم التشجيع ، بل وإلى الكبت . وذلك أن كل تساؤل يأتي من جانب الطفل يعتبر بمثابة وقاحة مما يضطره إلى التخلي عن طرح الأسئلة ، معتقدا بأن الظواهر التي تدفع إليها لا تستحق انتباه الكبار ، ولا حتى اهتمامه هو : فيتخذ تجاه العالم موقف عدم الاكتراث ونتيجة لذلك ، فإن موضوعة السببية التي تنمو بفضل لماذا ؟ وكيف ؟ تظل في حالة كهون . وفي المقابل نجد الوسط العائلي وخصوصا النساء يعطين للطفل رؤية مفزعة عن العالم ، مسكونا بالأغوال والجز ويقوى أخرى ، معادية للإنسان الذي يجب عليه أن ينفذ لممارسة أعمال سحرية وخرافية للفوز برضاهم ، فيرسخ في ذهن الطفل أن الإنسان لا يستطيع شيئا بنفسه ، وكل ما يمكن أن يناله من خير أو شر هو من عمل قوى خارجية لا ضابط لها . هذا التأويل للعالم يجعل من العسير بل من غير المقبول ، تفسير العالم تفسيراً عقلانياً بواسطة قوانين الطبيعة ، ويشكل عقبة في سبيل البحث عن الحقيقة ، مستقبلاً ، بتفكير منطقي » (2)

وفي نهاية المرحلة الثانية أي حوالي السن الخامسة ، يصبح حضور الطفل في البيت غير محتمل حيث يرسل إلى « المسجد » « الكتاب القرآني » الذي يلعب دوراً هاماً جداً في حياته الوجدانية والثقافية . فتصرف الفقيه يحمل أعلى درجات العداء والضغط الذي يمارسه الوسط على الطفل ، فهو مكلف بالتعليم والتربية مما يسمح له أكثر من غيره بفرصة الحكم على الطفو سواء بدعوى أنه لم يحفظ الدرس أو بسبب « سلوكه السيء »

وما دامت سلطة الفقيه غير محدودة ، فهو بعاقب الطفل عن الأعمال التي يقتربها حتى خارج « المسجد » ذلك لأنه اتفق مع الأب الذي قال له يوماً بصوت واضح مفهوم ، المثل الشهير « أنت تقتل وأنا أدفن » هذا المثل يزيل من ذهن الطفل كل إمكانية لتدخل الأب في حالة تعسف الفقيه ، بالإضافة إلى الاعتقاد بأن العلم لا يحصل عليه الإنسان إلا بالخشية والالام ، والمتمثلين في ترقب الموت .

وعن طريق « الفقيه » يقوى الأب سلطته الذاتية ، حيث يتواطأ معه لتحقيق « التهذيب والتأديب » للذين يكمنان ، قبل كل شيء ، في الطاعة العمياء

لسلطة البالغين . وإذا كان الكتاب القرآني مؤسسة وظيفتها الأساسية «الحفاظ على الهيكل الاجتماعي» فانه ينبغي على «الفقيه» ، حسبما تفرضه التقاليد أن يعلم الطفل ويروضه على احترام الابوين والسلطات ، والوجهاء ، والشيوخ ، هذا التصور تبنته بعض الاسر بالرغم من وعيها القام بهزال المردود ، خاصة ما يتعلق منه بالكم القرآني الذي يحفظه الطفل . من هنا كنا نسمع بعض الآباء يقولون للفقيه « علم ابني الادب والتربية الحسنة ، أما الباقي فالله يدبره » .

ان الطفل الذي ينتمي الى أسرة كادحة ، غالبا ما يقوم بتدريب قصير الامد في « المسيد » قبل أن يستعمل في قطاع الانتاج ، وذلك حتى يعطى له تكوين أولي ، وحتى يتعود على تقبل كل ما يؤمر به بعد مغادرة الكتاب القرآني بالإضافة لوظيفة التعليم والتأديب، يزاول الفقيه نشاطات أخرى متكاملة مع بعضها مثل ممارسة الشعوذة والسحر ، وما يتفرع عنه من صناعة للتمائم، هذه النشاطات يدعمها سلوك النساء الغارق في الاوهام والتطير ، كل هذه المظاهر تقوي الاتجاه السحري بشكل طبيعي في تفكير الطفل خلال هذه الفترة . وكل هذا يمر في جو يطفئ عليه الخوف ، وعدم الثقة ، والشكوى والانتهازية التي تطبع علامات الاطفال فيما بينهم كما تطبع علاقاتهم بالفقيه . ولايقاف عدوان الفقيه يتخذ الطفل كل أسباب الدفاع المتمثلة في المكافآت أو المنح المادية أو المعنوية علاوة على الاجرة النصف اسبوعية الاربعاء والاحد وبذلك يقوم الطفل بأولى محاولاته في الرشوة .

إذا انقطع عن الدراسة حوالي سبع أو ثمانية سنوات ، يعهد به الى صانع تقليدي بغية تكوينه مهنيا ، حيث يستعمل كمساعد « متعلم » في المعمل أو لخدمة عائلة « المعلم » . ان سلطة هذه الاخيرة تشبه سلطة الفقيه باعتبارها غير محدودة ، وبكونها تعزز سلطة الاب وكباقي « المعلمين » ، فان العقاب الجسدي يعتبر ممارسة عادية ، الا أن الصانع التقليدي يتميز عن الفقيه بنوع من الانزباط في السب والشتم ، مما يفرغ الطفل من كل محتواه بشكل حتمي . كل هذه الضغوط تنتظر لتسلط على الطفل المغربي في هذه المرحلة من عمره ، ولتنمي لديه مجموعة من الآليات التي تساعد على البدء في ابطان السلطة ، والقيم التي تواضع عليها البالغون ، والتي تقضي الى توقف نمو «الانا الاعلى» . أما الفترة الممتدة من ست الى اثني عشرة سنة ، فمعتبر المرحلة النهائية في تكوين شخصية الطفل ، ذلك أن هذا الاخير يتخذ موقفا أكثر حيوية ونشاطا ينشد من ورائه اقامة علاقات جديدة ، مع أبويه ومع الغير ، تقوم على اساس تبادل الاحساس ، والتقدير والتقويم . وهكذا وبالتدريج الطبيعي يدرك الطفل أن القوة ، والقدرة ، والفائدة مفاهيم نسبية ، وأن قيمته - وقيم الآخرين أيضا - تقوم على اساس المساواة بين جميع أعضاء المجتمع ، وقد كان الطفل فيما مضى لا يعرف سوى التمرکز داخل ذاته ، الناتج عن قسرة البالغين . الا

ان التقاليد المغربية تمنع على الطفل ان يصدر أي حكم على الابوين او البالغين .  
عموما حتى لا يحل به غضب السماء الذي تتضمن معانيه كلمة « السخط » .  
وهكذا تعارض التقاليد قيام أي نسق مرجعي يمكن استخدامه في عملية تقويم  
سلوك الآخرين قصد تصحيح السلوك الشخصي حسب المنظور التقليدي ،  
يتحتم أن يكون الاحترام أحادي الجانب ، غير مشروط ، ومطلق تجاه الابوين ،  
والشرفاء ، والوجهاء ، والسلطات العمومية . وهكذا تفرض التقاليد على الطفل  
هذا الشكل من العلاقات مع الآخرين ، ان النمط المفروض نمط قائم على الانقياد  
والطاعة العمياء ، نمط يفضي الى الحصول على « الرضى » .

ان موقف المجتمع المغربي من اقامة علاقات متبادلة بين الطفل والبالغين ،  
يؤدي حتما لدى الطفل الى الاحساس بانعدام قيمته الذاتية ، وعبر الاسقاط الى  
« انعدام التقويم المتبادل » مما يقوى العلاقات السلطوية .

ان الآباء يضعون أبناءهم موضع التحقير والالقيمة كلما اعتقدوا ان  
سلطتهم أصبحت مهددة برغبة أبنائهم نحو الاستقلال . تجاه الآلام التي  
تخلقها هذه الاوضاع ، فان الطفل يحاول التكيف عن طريق التخلي عن التحرر  
أي عن طريق كبت رغبة الاستقلال أولا ثم عن طريق الحيلة والانتهازية ، يتقني  
كل معارضة ، ويكسب بعض مظاهر العاطفة الابوية . انه لا يفعل بالثبوة  
المعارضة الالماما ، لكونها تجلب عليه سخط الابوين ولوم المجتمع . ومنذ  
سنة قرون عقد ابن خلدون فصل في كتابه « المقدمة » سماه :

« فصل في أن الشدة على المتعلمين مضره بهم » جاء فيه ما يلي :

« وذلك أن إرهاق الجسد في التعليم مضر بالمتعلم سيما في أصاغر  
الولد لانه من سوء الملكة . ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو  
المماليك أو الخدم سطا به القهر ، وضيق على النفس من انبساطها ، وذهب  
بنشاطها ، ودعا الى الكسل ، وحمل على الكذب والخبت ، وهو التظاهر بغير  
ما في ضميره خوفا من انبساط الايدي بالقهر عليه ، وعمله المكر والخديعة  
لذلك . وصارت له هذه عادة وخلقا فسدت معاني الانسانية التي له من حبت  
الاجتماع والتمرن ، وهي الحمية المدافعة عن نفسه ومنزله وصار عيالا على  
غيره في ذلك ، بل وكسلت عن اكتساب الفضائل والخلق فانقضت عن غايتها  
ومدى انسانياتها فانتكس وعاد في أسفل السافلين .

وهكذا وقع لكل أمة حصلت في قبضة القهر ونال منها العسف واعتبره في  
كل من يملك أمره عليه ولا تكون الملكة الكافئة له رفيقة به . تجد ذلك فيهم  
استقراء وانظرو في اليهود وما حصل بذلك فيهم من خلق السوء حتى انههم  
بوصفون في كل ائق وعصر بالحر ج ومعناه في الاصطلاح المشهور التخابث  
والكيد وسببه ما قلناه ، فينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده ألا يستبدوا  
عليهم في التأديب » (3)

ان تكوين الضمير الاخلاقي ، أي نمو الحس الاخلاقي كاحترام القانون ،

والاستقامة ، والاحساس بالعدل ، كلها أمور مرتبطة بمفهوم التقويم المتبادل . فالاحساس باحترام القانون مثلا ، يتطور مع نمو الطفل عبر الطفولة الاولى ، حيث يضمني الطفل على القانون قيمة مطلقة باعتباره منبثقا عن أصل غير طبيعي . فالقانون من اختصاص الاله ، والابوين والبالغين لذا ينبغي ان يحترم ككل ما يصدر عن هذه النماذج من السلطة .

وعبر التطبيق الاجتماعي لنموذج المساواة ، أي في مرحلة متأخرة من الطفولة ، أثناء اللعب في الوسط الطفولي ، يتصور الطفل القانون كانعكاس لاتفاق ، ولارادة مشتركة بين الافراد . وهكذا فاحترام الاتفاقية بحتم تورط الاخر وليس التدخل المستمر لارادة خارجية . غير ان العلاقات بين البالغ والطفل في السياق التقليدي يكتنفها مناخ صارم يتمثل في مجموعة من العلاقات الموجهة من البالغ الى الطفل المتسمة بالقوة . بالاضافة الى هذا فان عدم انسجام انفعالات البالغين مع سلوكيات الطفل ، لا تسمح لهذا الاخير أن يقيم نظاما منطقيسا يتصرف انطلاقا منه لانه حسب مزاج اللحظة للبالغ ، نفس التصرف من طرف الطفل يمكن أن يسامح أو يشجع عليه أو يعاقب عليه . هكذا يفقد الطفل النظام الذي يساعده على ضبط تصرفاته من جهة ، ولا يستطيع التنبؤ بانفعالات البالغين من جهة أخرى ، مما ينتج عنه اتخاذ مواقف ، تعكس شكه العميق . وتردده المتجلبين في مجموعة من المظاهر كفقدان الثقة بالنفس ، والارتجال والتسرع ، والقسوة ، والادعاء .

ان غياب التقويم المتبادل يعرقل ، بطبيعة الحال ، تكوين حسن الاستقامة ، الذي يعني رفض الغش والتدليس كعلاقات تربط بين أشخاص يحترمون أنفسهم . فمخالفة القانون الاجتماعي أو الاخلاقي ، وممارسة الغش للتملص من بعض بنود الاتفاقية يفضيان لتحطيم هذه الاخيرة ليس لاسباب سحرية أو اخلاقية مجردة ، لكن للهدم الذي يمس الاحترام المتبادل الذي بدونه يستحيل اقامة أي تعاون . واذا كان الضغط أساس نظام اجتماعي ما ، فانه يصبح الحافز الاساسي لاي نمط من أنماط السلوك .

أما بخصوص تكوين حس العدالة ، فهو مربوط بالممارسات المتعلقة بالاحترام المتبادل والتعاون ، وما دام القانون لم يتم بعد تمثله باطنيا ، وما دام يعتبر من وضع الابوين والبالغين ، فان حس الطاعة يقضي حس العدالة : وحتى نهاية الطفولة الاولى يعتبر الطفل كحقيقة كل ما يصدر عن البالغ . لكن ابتداء من سبع الى ثمانى سنوات ، في بعض الاحيان من ثمان الى تسع سنوات فان الاتفاق يقضي الطاعة من العلاقات بين الاطفال ، وبالامتداد بين الطفل والبالغ ، حيث تحل العلاقات المتبادلة محل العلاقات الاحادية الموجهة ، ان الرجوع الى هذه الاخيرة ، يسبب الاحساس بانعدام العدالة .

هكذا فالتقويم المشترك والمتبادل يدفع بالطفل الى « تنظيم جديد للقيم الاخلاقية يتضمن استقلالا نسبيا للضمير الاخلاقي للافراد » ان هذا

التنظيم يعتبر قاعدة « لأخلاقية التعاون التي تشكل صورة للتوازن الاعلى بالنسبة لأخلاقية الانقياد البسيطة » .

يستفاد من مرحلة المراهقة عن طريق الطفل الذي يؤكد شخصيته ويدمج نفسه في المجتمع ، أن تأكيدات الشخصية يترجم على المستوى الوجداني العاطفي بضبط احساساته تجاه الابوين ، وبقدرته على ابراز التعاطف والصداقة تجاه الاشخاص خارج الوسط العائلي . أما على المستوى الاخلاقي فيتمكن المراهق المغربي بصفة نهائية من ابطان السلطة الابوية والاجتماعية واستكمال نفسه التقويمي ، ووعيه الاخلاقي ، ويحقق الانقياد الذاتي لنظام موجود .

أخيرا على المستوى الثقافي ، يكتسب المراهق فكرا مجردا ، وصوريا ، يساعده في البرهنة على الفرضيات ، وفي استعمال لغة رمزية . هذه الامكانيات الجديدة تسهل عليه فهم الانساق والمنظومات ، كما تفتح أمامه آفاق المذاهب الفلسفية ، والاقتصادية ، والسياسية والاجتماعية ، وتدفعه ليعد هو نفسه « فرضيات » وأن يقوم باختيارات في شتى المجالات المهنية والدينية ، وكذلك المتعلق منها بالحياة الزوجية ، هذه الاختيارات الموضوعية صممت بشكل حيوي يساعد المراهق على الاندماج في المجتمع ، وذلك عن طريق « مخطط للحياة » أي بواسطة صورة مثالية تقريبا تحدد الاهداف التي ينبغي تحقيقها في الحياة ، كما تحدد التغيرات التي يؤمل حصولها داخل المجتمع الذي يمارس ذلك المخطط . ان هذا الاخير سيكون في الوقت ذاته « مصدر نظام للارادة ، ووسيلة للتعاون » .

واعتمادا للتاريخ الوجداني ، والاخلاقي ، والثقافي للطفل المغربي الذي تربى بطرائق وتقنيات تقليدية ، ومراعاة لتجربته بخصوص العلاقات العيشية « Interpersonnelles » فان المراهق المغربي ينبغي عليه منطلقا ، في حالة تفوق مدرسي ، أن يتمثل باطنيا التبعية والانقياد التام أو الجزئي للمجتمع ، ولتقاليد ، وللسلطة ، سواء كانت شعبية أم دينية أم مادية أم علمية . وفي حالة فشل مدرسي ، فان المراهقة تكسب امتدادا من خلال ممارسات المراهق المتسمة بالعنف الذي يؤدي الى الضياع ، خاصة في الوسط الحضري وسط هذه الظروف ، حيث تكتنف طفولة المراهق حياة انفعالية مضطربة ، سببها نقص متعدد الوجوه والمظاهر ، فان المراهق يستمر في البحث لاشباع حاجاته ، وذلك بتقديم هبات يتوسل الشاب المراهق من خلالها لنيل الحب والقيمة لدى ابويه ، اللذين يتدخلان في شؤون حياته الخاصة . هذا السلوك من جانب المراهق يترجم التبعية الوجدانية ، ويفسر التعلق الطفولي تقريبا للشباب المراهق بأبويه وبأسرته عموما .

ان التبعية العاطفية ، والاخلاقية ، الثقافية تعرقل عملية مواجهة الحياة من طرف الشباب المراهق الذي يبحث فقط عن اكتساب التقنيات التي اعتاد

المجتمع استعمالها ، فهو مقتنع بأن الحكمة وسر النجاح تكمنان في التقليد الذي يحسن معرفته وتخليده .

في حالة تدرسه سنوات لا بأس بها ، فإن المراهق يأخذ في حسابه آراء أساتذته ، كما أن حسه النقدي ينمو ، وفكره الانتقائي كذلك . أما قدراته التقويمية فهي محدودة وقلما تتاح له الفرصة لاستخدام هذه القدرات لان الاختيارات الأساسية التي ترتبط بحياته عادة ما تكون من صنع المجتمع أو الأسرة التي تختار له الاصدقاء والاعداء والمهنة وكل ما يتصل به حتى الاسماء الشخصية لابنائهم .

ان اطار الحياة في السياق التقليدي ، مرسوم ، ويكفي الشباب المراهق ان يندمج فيه وان يستعد بالقرب من أبويه ليخلفهما في انتظار إعادة نفس الدور مع أبنائهم داخل مجتمع يحتاط من التغيير والتجديد .

وهكذا يتصور الشاب المراهق التنظيم الاجتماعي على أنه قدر ، لا يملك الانسان أية وسيلة لتغيير بنياته الاقتصادية والاجتماعية ، لذلك فهو لا يفكر في حركة فردية أو جماعية قادرة على تغيير المجتمع وتقريب الهوة الفاصلة بين الطبقات المكونة له ، ان الانسان الذي تعمق فيه هذا التصور يبحث بكل الوسائل لاكتساب النفوذ والسلطة ( لان النفوذ بخول لصاحبه حق الاستهانة بالآخرين ) التي تعتبر مصدر الشهرة والقيمة أو التوضع تحت حماية أولئك الذين يملكونها .

ترجمة : اعنون عبد الحميد

## المراجع :

- (1) انظر النص الاصل للمقالة في عدد 1969 من Annales Marocaines de Sociologie : page 33
- (2) هذا الجزء ، مترجم ضمن الترجمة العربية لكتاب « مستقبل شبیبینا في أمم الثمانينات » د. محمد الحبابي . ت . الأستاذ محمد براءة
- (3) مقدمة ابن خلدون : فصل في ان الشدة على المتعلمين مضرة بهم .